

الفصل الخامس

سياسات شرق أوسطية فرنسية بريطانية. فاصل دبلوماسي.
التركيز على المستقبل العربي. شريف مكة يدعي بجزء من
كردستان. ضعف الحركة القومية بين الضباط الكرد. فشل
محاولات التعاون الكردي الأرمني. النشاط الروسي في كردستان.
إتفاق (سايكس بيكو سازانوف) ودخول ولاية الموصل ضمن خطط
القسمة لما بعد الحرب.

لم يداخل الترك قلق شديد ولا وجدوا حاجة معينة تهدف الى إجراءات قمعية لوقف
تصاعد التيار القومي الكردي أثناء الحرب ولم يداخلهم كبير شك في ولاء الكرد
وجديتهم في الإسهام بالمجهود الحربي. ففي النهاية لانجد غير عدد من الوطنيين
لايتجاوزون أصابع اليدين كسبهم الطرف الروسي الى جانبه.
والتعاون الكردي الأرمني الذي عمل لأجله القوميون الكرد الكثير، لم يكتب له
النجاح أصلاً بسبب الحرب وإنضمام المحاربين الأرمن الى الجانب الروسي.
في الواقع لم يكن في المعسكر الروسي من الكرد العاملين في الحقل الوطني ذوي
المنزلة والكلمة المسموعة غير أربعة: سيّد طه شمدينان (النهري) وصفيه الشيخ
عبدالسلام (الى حدّ ما) وعبدالرزاق بدرخان وعمه كامل بدرخان. وهذان الأخيران وجدا
في تفليس يحاولان إقناع نائب القيصر الدوق الأكبر (نيقولاس) بأهمية تبني القضية
الكردية عبثاً. مثلما خابت مساعي الشيخ عبدالسلام معه قبلها. ربّما لأنّ المطامح
الكردية كان مقدراً لها بالأخير أن تصطدم بالمطامح الأرمنية؟ والحقيقة هي انه لم تكن
من مصلحة روسيا القيصرية الأخذ بيد الإستقاليين الكرد بتبني مشروع إستقلال أيضاً
الى جانب إستقلال آخر للأرمن. لأنها كانت في الواقع تريد أناضوليا الشرقية لنفسها.
إلا أن حركة الوعي القومي وجدت ضالتها في فئات صغيرة لكن مثابرة وعنيده من

الوطنيين الكرد في المنفى واصلوا العمل من أجل تحقيق أمنية إستقلال كردستان (هذه المرة) وليست اللامركزية التي كانت قبلتهم قبل الحرب. لاسيما في خلال السنتين الأخيرتين من الحرب حينما بدا أفول شمس الإمبراطورية العثمانية مؤكداً وواضحاً لكلّ ذي عينين.

ولم تنتشر دعوى القومية الكردية بين الضباط الكرد في الجيش العثماني أثناء الحرب كما إنتشرت مثيلتها بين الضباط العرب في تلك الفترة وكاد كلّ الناشطين في القضايا الوطنية يكونون من المدنيين. بإستثناء الجنرال شريف باشا السليمانى وهذا لم يكن ضابطاً في الخدمة الفعلية بل في السلك الدبلوماسي. ولم يبرز للضباط الكرد دور إلا بعد نهاية الحرب.

لم يسمع عن ضباط كرد انهم أظهروا مشاعر قومية. وإنما كانوا ضباطاً محترفين لا اهتمام لهم بالسياسة ولا بالنشاط القومي الكردي منذ إنقلاب الإتحاديين لا في العاصمة ولا في كردستان. ومما يلفت النظر حقاً والشيء بالشيء يذكر أنّ عدداً ملحوظاً من الضباط الكرد إلتحقوا مع الضباط العرب بشريف مكّة الحسين ابن علي عندما أعلن ثورته. تلك الثورة التي أججها البريطانيون ودعموها في ١٩١٦ وما بعدها.

عدل البريطانيون في العام ١٩١٥ فجأة عن سياستهم القديمة الطويلة العمر. بالمحافظة على كيان الإمبراطورية العثمانية. وهامهم الآن في ١٩١٦ يعملون بسياسة جديدة تهدف الى تقطيع أوصالها وإلحاقها بتلك الإمبراطوريات التاريخية الزائلة.

لأهمية هذا التحول الفجائي ولتأثيره في النشاط القومي الكردي وإنعكاسه على مستقبل كردستان ومصائر الشعب الكردي سأحاول بتمهيد تاريخي وجيز تتبع جانب واحد من آثاره. وكيف كان من نتائجه تقسيم كردستان مرةً أخرى.

في ١٧٩٨ غزت جيوش فرنسا بقيادة الجنرال نابوليون بونابارت أرض مصر واحتلتها ثم سار الى سورية معتمراً وكما إدعى فيما بعد بانه سيقصد (بابل) ويعبر منها الى الهند. إلا أن خطته هذه أحببت على ما يحدثنا التاريخ حين وقف جيشه عند أسوار عكا وتراجع. ثم جلا عن مصر في ١٨٠٥.

كان الجواب البريطاني على التهديد دعم الأنظمة المحلية في الشرق ضدّ التوسع

الأوروبي. لم تكن راغبة في السيطرة أو بسط نفوذها على تلك الأصقاع. بل ظلت تحاول طوال القرن التاسع عشر منع الدول الأوروبية من التسلل اليها وجعلها مناطق نفوذ. وخاضت في سبيل ذلك حروباً الى جانب الدولة العثمانية كحرب القرم في العام ١٨٥٤ ووقفت أمام أطماع روسيا في الحروب التالية وكلّ قصدها المحافظة على الوضع الراهن. وياشرت من ضمن ما باشرته سياسة دعم ثابتة ومعاونة للدول الإسلامية المتداعية في آسيا. وكان خصمها اللدود روسيا القيصرية. وظلّت منشغلة طوال القرن وكأن لا عمل لها إلاّ رصد تحركات الروس وإحباط خططهم. وقد أنجبت في خضمّ هذه المجهودات أجيالاً متعاقبة من الموظفين المدنيين والعسكريين شاركوا بحماسة وتفان في هذه «اللعبة الكبرى The Great Game» كما أطلق عليها الكتاب السياسيون - حيث ترتفع قيمة الرهان الى أقصى ما يملكه الخصمان. رهانٌ حدّده السياسي الكبير لورد (جورج كرزن) بالشكل التالي:

«تركستان؟ أفغانستان؟ قزوين الشرقية؟ بلاد فارس؟ هذه أسماء لاتوحي للكثيرين إلاّ بشيء بعيد... إنها بالنسبة إليّ وأنا أعترف بهذا - مجرد قطع أحجار مرصوفة فوق رقعة شطرنج تجري عليها لعبة السيطرة على العالم»^(١).

بل وقبيل نشوب الحرب العظمى بأشهر. وجدنا السرّ مارك سايكس كبير خبراء حزب المحافظين في الشؤون التركية ينذر مجلس العموم البريطاني بقوله. إختفاء الإمبراطورية العثمانية إن هو إلاّ الخطوة الأولى لإختفاء إمبراطوريتنا. وشاركه في هذا الرأي عدد كبير من سياسة بريطانيا العظام. أمثال الدوق ولنغتون^(٢) وكاننك^(٣).

- ١- جورج نثنائيل كرزن [١٨٥٩-١٩٢٥] سياسي بريطاني تولى منصب نائب الملك في الهند [١٨٩٨-١٩٠٥] ووزارة الخارجية البريطانية (١٩١٩-١٩٢٤). شارك في مؤتمرات الصلح بعد الحرب. وفي إنشاء عصبة الأمم وقيادتها [الإقتباس من كتابه (بلاد فارس والقضية الفارسية) G. N. Curzen: Persia and the Persian Question لندن ص ٣]
- ٢- Arther Wellesly Wellington (١٧٩٢-١٨٥٢) الجنرال الذي هزم نابوليون بونابارت في معركة واترلو الفاصلة (١٨١٥). وأصبح رئيس وزراء (١٨٢٨-١٨٣٠).
- ٣- George Canning (١٧٧٠-١٨٢٧). سياسي بريطاني. أصبح رئيس وزراء في سنة وفاته وبقى فيها أشهراً. عرف بمجهوداته في تحقيق إستقلال اليونان.

وبالمستون^(٤) و دزرائيلي^(٥).

حصل هذا الإنقلاب العظيم خلال مائة يوم فقط وقضى على سياسة مائة عام -
تبتديء من إعلان تركيا الحرب. إستدارت بريطانيا بمقدار ١٨٠ درجة وإنطلقت لتحطيم
الإمبراطورية التي ركبت حكومات الوايت هول المخاطر وخاضت الحروب للإبقاء عليها.
في مبدأ الحرب كان من الضروري إيضاح طبيعة الوجود البريطاني في كل من مصر
وقبرص وهما جزء من الإمبراطورية العثمانية رسمياً، ومال البريطانيون بالأول الى
إلحاقهما بها، سيما وأنها كانت تحتل مصر إحتلالاً فعلياً إثر ثورة عرابي باشا في
١٨٨٢، من وراء الخديوي الذي هو رسمياً نائب السلطان أو عامله على مصر. « ودارت
في حينه شائعات بأنه كان يفكر في إحتمال نزع لقب الخلافة من السلطان واتخاذ
لنفسه والحلول محلّه في حكم سائر البلاد الناطقة بالعربية بفضل هذا اللقب أي بقطع
البلاد العثمانية الى نصفين^(٦)». إلا أن المندوب السامي البريطاني في القاهرة صاحب
السلطة الفعلية كان ضدّ هذا العمل. ورأى فيه [رولاند ستورزا] السكرتير الشرقي
للمندوب السامي الرجل الفعّال العظيم النفوذ والحول والطول خرقاً لتعهد بريطاني عمره
أربعون عاماً بالجلء عن أرض مصر وباعتبار وجود الجيش البريطاني وجوداً مؤقتاً،
وختق رغبة الخديوي وطموحه.

وفي نهاية العام ١٩١٤ عين (السرّ هنري مكماهون) معتمداً بريطانياً في مصر خلفاً
للورد كتشنر الذي أستدعي لتناط به وزارة الحرب. وهو موظف مستعمرات محدود
القابليات لا لون له شارف على التقاعد. وكان معه الجنرال (ريجنالد ونكيت) حاكم

٤ - Henry John Palmerston (١٧٨٤-١٨٦٥) أحد أشهر الساسة البريطانيين في القرن التاسع عشر.
المعروف (بسياسته الإعتدائية) من المدافعين عن بقاء الإمبراطورية العثمانية والمحافظة على
السلام في أوروبا. وهو الذي حقق لبريطانيا نصرها في حرب القرم. رئيس وزراء (١٨٥٥-
١٨٥٨) و(١٨٥٩-١٨٦٥).

٥ - Benjamin Disraeli (١٨٠٤-١٨٨١). من ألمع الساسة البريطانيين المحافظين ذو أصول يهودية.
تقلّب في عدة مناصب كبيرة وكان رئيس وزارة مرتين أشهر بشرائه أسهم شركة قناة السويس
وسيطرة البريطانيين عليها. وخاض حرباً الى جانب العثمانيين في العام ١٨٧٧ ضد روسيا.

٦ - إيلي خضوري: المناهات الانكلوعربية. Eli Kadoury: The Anglo- Arab Labyrinth كمبردج ١٩٧٦
- ص ١٣.

السودان العام وقائد القوات البريطانية في مصر وهو شخصية ذكّية أريية يتقن اللغة العربية مثله في القاهرة (كلبرت كلايتون) الذي يضاياه مقدراً وذكاءً - وقد قُدّر له المساهمة بدورٍ حاسمٍ في تغيير خارطة الشرق الأدنى عند حصول التغيير الفجائي في السياسة البريطانية إزاء مصير الإمبراطورية العثمانية^(٧).

وكان على بريطانيا أن تشرك حليفاتها فرنسا في تقويض صرح الإمبراطورية العثمانية ولم يبد الأمر سهلاً في أوّل الأمر. كان وزير الخارجية الفرنسي (ديلكاسيه) مثلاً يرى ان المحافظة على الإمبراطورية أهم بكثير من قيام فرنسا بضمّ سورية وهو ما إقترحته عليها بريطانيا^(٨). وما حصل هو أن (مكماهون) الذي مرّ بباريس وهو في طريقه لمزاولة شؤون عمله في مصر، أخفق في إعطاء أجوبة واضحة مقنعة حول السياسة التي إنتوتها حكومته إزاء الأقاليم العثمانية الناطقة بالعربية والأجزاء الشرقية من كردستان بسبب غيابته ومحدودية عقله إلاّ أن الفرنسيين ترجموا غيابهم وقصوره العقلي بالدهاء وسعة الحيلة. وإعتقدوا بأنه يتعمد إخفاء الحقائق عنهم بالروغان من إعطاء أجوبة مباشرة. وراح الوهم بهم الى الحدّ الذي جعل (مسيو مللران) وزير الحرب يستنتج بأنّ البريطانيين إنما يخططون لغزو سورية!^(٩)، الأمر الذي حمل الحكومة الفرنسية على الأمر فوراً بتجهيز حملة عسكرية لإنزالها في سورية حال إقدام بريطانيا على عمل مماثل. إلاّ ان اجتماعاً تالياً تمّ بين وزيرى خارجية البلدين أكّد فيه اللورد (أدوارد غري) لزميله الفرنسي ان بريطانيا لا أطماع لها في سورية. وحينئذ إتفق الطرفان على أن لاتعارض بريطانيا في الوجود الفرنسي في حالة أيلولة الحرب

٧- إرتقت بكلایتون المناصب ليبلغ رتبة جنرال مبتدئاً برتبة نقيب. ويبدو أنه كان شخصية رائعة رفيعة الخلق. من أولئك الشبان المغامرين وبينهم (لورنس العرب) والطلاب الأركيولوجيين وصغار المستشرقين الذين عملوا في المكتب العربي وهو دائرته. ليس هناك أحدٌ الأّ ويلهج بالثناء عليه وإمتداح قابلياته. وسيأتي الحديث عنه.

٨- كانت فرنسا في أوائل العام ١٩١٤. توظف ما نسبته ٤٥ بالمائة من مجموع أموالها الموظفة خارجياً في الإقتصاد العثماني. ولها ما يبلغ ستين بالمائة من الديون العثمانية العامة (مذكرات ستورز: نيويورك ١٩٣٧، ص ٦ Stores Memoirs).

٩- كريستوفر اندرو وكانيا فورستر: أوج التوسع الفرنسي ١٩١٤-١٩٢٤. Christopher Andrew
and Kanya Forester: The Climax of The French Expantion 1914- 1924. مطبعة جامعة ستانفورد

١٩٨١. ص ٢٠.